وحدة . ومن هذه الزيادة ٤٠٠ وحدة (اي ٢٨٫٥ في المئة) تعود فتظهر بشكل عمل ميكانيكي نافع وتقابل ١٧٠٫٠٠٠ «كيلو جرامتر» في عمل ثماني ساعات اي ما يرفع كيلو جراماً واحداً ٧٠٠٠٠٠ متر ومئة كيلو جرام ١٧٠٠ متر . على ان الجسم الانساني يكون اكثر اقتصاداً في عمله اذا عُرِّض للعمل الشاق الطويل منهُ اذا كان عملهُ غير شاقّ . وقد وجد في هذه الاحوال ان نصف القوة الكيماوية الموجودة في الحلاوة التي يتناولها العامل من الطعام لم تظهر بصورة عمل نافع اي ان الزيادة التي يتناولها العامل الذي يعمل عملاً شاقًّا تظهر فائدتها في العمل الذي يعملهُ . فالانسان اقوى على العمل اذا عمل بهمة ونشاط منهُ اذا كسل او عمل بالتراخي .

في بادية الشام

(٣)

(الدين في البادية) . الانسان ابن البيئة والمربى والبدوي لخشونته وخجهيته [1] في اخلاقهِ شراسة وقسوة ودعارة فهو لا يشعر بما يشعر بهِ القروي المتحضر من عواطف الرحمة والحنان او ما تجمّل بهِ من محاسن الحضارة كالدين واللطف ورقة الطبع وخفة الظل الاّ قليلاً . ولهذا ورد في الكتاب العزيز ان الاعراب اشد كفراً ونفاقاً وان كان منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر . ولهذا ترى البدوي اليوم يكب مسلّماً على رأس اميرهِ او شيخهِ بان يقبل رأسهُ استجاحاً لطلبتهِ مما لا يقوى عليهِ الحضري من تحمل اكباب كل بدوية على رأسهِ ولهذا كان يضطر الامراء الاشراف في الحجاز اذا ازدحم البدو في السلام عليهم ان يقولوا لهم : « النظر تحية » اي قد يغني النظر مع الاحترام والسلام عن التحية وعادتها المعروفة . ومما حفظتهُ كتب الادب لنا ان رجالاً من وفد تميم نادوا النبي (ص) باسمهِ من وراء الحجرات فقال الله تعالى « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون » فالبدو لخشونتهم وتوحش بواديهم جفاة الطباع قساة القلوب واشد الناس حاجة الى ما يشذب من اخلاقهم و يثقف من اميالهم و ينبط ماء الحنان والشفقة من قلوبهم . والبدو لفقد

(١) الخجهية هي الجفاء والخشونة في الطبع وغيره وكل ما هو من لوازم البادية الوعرة

الوازع بين ظهرانيهم وقد انتشار العلم في قبائلهم بحاجة كبيرة الى الدين البسيط الخالي من الخرافات وهم اشد الناس خضوعاً للدين اذا عرفوه وله في نفوسهم تأثير شديد جداً

في القرون المتأخرة عم الجهل بالدين جزيرة العرب اللهم الاَّ بعض جهاتها كعمان واليمن ولم يستفق العرب من سباتهم ولا انقشعت عنهم ظلمات الجهالة الاَّ بعد قيام محمد بن عبد الوهاب وآل السعود بثورتهم الدينية والسياسية القومية . فترى اليوم ان عربان نجد والقصيم اقل من عربان بادية الشام وسواد العراق شروراً وجهلاً بامور الدين فعرب شمّر مثلاً يصلون واما الرُّوَلَة فلا يعرفون اقامة الصلاة ومثلهم بنو صخر والسرحان واكثر عربان بادية الشام

البدو كالناس على دين ملوكهم ولذا امتاز التوانهة عن سائر البدو في الشام بذكر الله احياناً واقامة الصلاة لان شيخهم عودة لا يتركها ويأمر قومهُ بها فتراهم اذا حانت الصلاة هرولوا الى الارض وتيمموا صعيداً طيباً ثم اذن مؤذنهم وهو شاب جوفي من الوهابيين الحنابلة فاصطفوا للصلاة وتنزلت عليهم السكينة وكأنَّ على رؤوسهم الطير فيعلوهم ذلك التسيير الرهيب : الله واكبر! فكنت اصلي معهم واقول واكعاً ساجداً في نفسي عند كل تكبيرة : « الله واكبر ما اعظمك يا محمد كيف استطعت ان تجمع من هؤلاء العرب الكلة وتعلمهم مثل هذه الصلاة النظام والتواضع والرحمة » : فلا تعجب والعرب من الساميين ان يمكن الله كما ورد في التوراة خيمة سام و يكثر من اولاد يافث . ولعلمي بما للدين من قوة التأثير في نفوس البدو كنت اذا قابلت شرذمة من العرب وداخلني منهم ريبة وتبينت الشر في اعينهم اتظاهر بتلاوة الاذكار والتسبيح والاستغفار بل اكثر من ترداد البسملة والحيلة والحدلة والسبحلة والحيلة والحوقلة واعلمهم باني من رجال الله وطالبي العلم بالازهر لا ضاربي الدف والمزهر . وقد دعاني لهذا الشيخ عودة ابو تائه مراراً للوعظ والتذكير فكنت افسر لهم بعد كل صلاة عصر شيئاً من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ما اتخذهُ والحديث ذو شجون سلماً للمقاصد القومية فاذكرهم بمجد اسلافهم العرب وما كان لهم من عز وسلطان وكيف كانت تفد اعراب البوادي على عرب الحواضر لتروي لهم اشعار من كانوا في الجاهلية ولغتهم وآدابهم وما كانوا يدانونهُ بذلك من خيرات الحضر والحفاوة والاكرام وكيف قُلب لهم اليوم بحكم الترك مجن الدهر وعنتهم انياب العيلة والفقر حتى العقتهم بالارض احكام العسر والقسر وعلم

جرا من العبارات التي كان يبدو عليهم التأثر بها والتحسر وكثير من جوابهم كوامن الغضب على القوم الظالمين

(نخوة العرب) هي اليوم اكتتاؤهم بالامس في مقام الافتخار او ميدان الحرب والجلاد وكل قبيلة لها نخوة عربية معلومة والتي لا نخوة لها لا شرف لها وتكون النخوة باللقب الممدوح او الكنية باب اوام او اخ او اخت وقد يكون لقبيلة نخوة ولشيخها اخرى كعرب الحويطات فان نخوتهم « اخوة صالحة » ونخوة عودة ابي تايه « اخو عليا » وعلياء هذه هي شقيقة زوجة ابن عمه عبطان ابن جازي شيخ الجوازي الذي مر بنا ذكره · ونخوة الشعلان « رعاة العليا » وبني صخر « رعاة العرفا » وهي الناقة المليحة السنام لغةً · ونخوة السرحان « رعاة البويضا » ثم بنو صخر كما قدمنا فصيلتان : الفائز ونخوة احدهم « اخو بلها » وفي القاموس ان البلهاء هي المرأة الكريمة النزيرة · ونخوة الطرشان « اخو فلرة » والظن فلرة تأنيث فُلُوّ وزان عدو وهو المهر فحرفت بعد ان قيل في البادية « هذه عصاتي [1] » ومن عادة العرب مدح الفتاة النجيبة بقولهم فلانة مهرة عربية كما قال الشاعر : « وما هند الاّ مهرة عربية » · ونخوة الشرارات بنو مكلب

(وادي السرحان) · لم يرد لهُ في معجم البلدان ذكر وهو مضاف الى قبيلة السرحان وربما كان في القديم مضافاً الى غيرها وهو يمتد من قريات الملح الى قرب دومة الجندل · وارضهُ رملية منبسطة ينشأها احياناً بساط خفيف من حصى المرو والعوان وبعض الآكام · ويحد الوادي شمالاً سلسلة من الجبال التي تبدو حمراء للركبان وهي لا تعلو عن سطح الارض كثيراً · وهذا الوادي لا يظمأ مرتادهُ لكثرة آباره ولذلك يختارهُ القوافل السيارة بين الجوف والشام

وكنا نرى اثناء سفرنا في هذا الوادي آثار الضباع والغزلان والمها ومن الطير آثار النعام والحبارى · وبالبدو قرم الى لحوم الحبارى التي يصطادونها بالمنقور · ورأيت اسرابا من الطير كالحجل فاردت ان اسأل البدو عنهُ فسمعت صوتهُ وقد كاد ان ينطق : قطا قطا قطا بحروفها فغلب على ظني انهُ القطا بعينهِ ثم سألت بدوياً كان يحاذيني من الركب عن اسمهِ فقال القطا فصرت اترنم بالبيت الذي يستشهد بهِ النحاة في انزال ما لا يعقل منزلة

(١) اول من عبر في البادية والصواب ان يقال هذه عصاتي

العاقر والنادي كمجنون ليلى القطا حنيناً الى ديارها وشغفاً بحب سكانها :

اسرب القطا هل من يعير جناحهُ ... لعلي الى من قد هويت اطيرُ

ثم تعود ثانية وتقطقط فاذكر قول الشاعر :

« يا حسنها حين تدعوها فتقتسبُ »

(اويسط) : بعد ان جزنا ماء الخيضر مررنا بماء العيسوية ولا ذكر لها في معجم ياقوت ثم المخا رواحلنا في اويسط وهو عبارة عن علة تُلُب واقعة في منتصف وادي السرحان ولذا سميت باويسط لانها تصغير واسط ولم ترد في معجم البلدان ايضاً بل ورد واسط وسمي به مواضع كثيرة في جزيرة العرب وهي سبعة حسب رواية ابي الندى وحول اويسط مراعٍ طيبة

(مراعي البادية) : ليس في البادية مراعٍ صناعية كما في القرى المخضرة والارياف الزراعية وهي خاصة بالابل وقد يوجد من النبات ما يصلح لرعي سائر المواشي وهذه المراعي عبارة عن اعشاب منثورة في سهول البادية واوديتها وآكامها وهناك من الاشجار شائكة [العضاه] وغير شائكة تقضم الابل اطرافها الخضراء في السنة المجدبة ويطلق البدو اليوم الشجر على الاعشاب وما له ساق من الاشجار كالغضا والاثل والسدر والسلم والطلح والطرفاء مما ينبت في البادية

والاعشاب منها ما هو حمض يقوم للابل مقام النوابل كالروثة والرمث وقد ذقتها فاذا بها شيء من الحموضة وهي وسائر الاعشاب يتراوح طولها ما بين شهرين او ثلاثة واوراقها دقيقة والروثة زهر احمر جميل . ومن الاعشاب ما له عرف شذي تعبق منهُ البادية كالشيح والقيصوم وهما مع الروثة والرمث احب المرعى للابل لانها تسمن وتنمي من جوع ولذلك ترى البدوي اذا ارتاد أو وصف ارضاً مخصبة لا يبدأ الأ بذكر هذه البقول الطيبة كما كان يفعل البدوي الجاهلي فقد روي ان اعرابياً وصف ارضاً احمدها فقال : « خلع شيحها . وانقل رمثها . وخضب عرفجها وانسق نبتها » ومعنى قولهُ خلع شيحها اي اورق وخضب عرفجها اي اسود خضرته وانسق نبتها اي تمام

ومن الاعشاب التي تهيم بها الابل النعي قال ادخرتهُ لما كتب الادب ان الاخوص بن جعفر بعدما كبر وعمي وبنوهُ يسولون بهِ الاباعر قالت لهم : « اي شيء ترعى

الابل» قالوا: الماء والنصفة. قال «سوقوا» ثم عدت فارتمت بمكان آخر فقال: اي شيء ترتعي الابل؟ قالوا: العضاة والقضة. قال سوقوا حتى اذا بلغوا بلداً آخر قال: اي شيء ترتعي الابل؟ قالوا: نصياً وصيالاً. قال: مكفية لرعاتها. مطولة لقراها. ترعوا وتشبعوا. ثم سألهم فقال اي شيء ترتعي الابل؟ قالوا: الرمث. قال: خلقت منهُ وخلق منها.

قال ابو صاعد: وزعم الناس ان اول ما خلقت الابل من الرمث وعلامة ذلك انك لا ترى دابة ترتعهُ الا الابل. وقد رأيت حاشية البيان والتبيين صفحة ٢٧ من الجزء الثاني تذكر ان الرمث مرعى الابل وشجر يشبه الغضا وهو تعريف غير صحيح لان الرمث لا يزيد ارتفاعهُ على شبرين او ثلاثة والغضا قد يستظل بشجرته الاثنان والثلاثة من الركب وقد يخو فيبلغ ثلاثة امتار علوًّا. قال المصباح: والرمث وزان حمل مرعى من مراعي الابل ينبت في السهل وهو من الحمض. وهذا التعريف صحيح بيد انهُ غير مخصص

وقد شاهدت شجر الارطى لا تعلو شجرتهُ ارتفاعاً على متر ويتخذ البدو منهُ صبغاً ووقوداً من قضبانهِ ورأيت العرفج وبقلاً يقال لهُ القرط ترعاهُ الابل. ومن ازهار البادية الاقحوان والحرذان وشقائق النعمان. ثم ان الاشنان من نبات البادية وهو معرب وبالعربية الحرض يجمع البدوي منهُ ما يقوم مقام الصابون وان كان للبدو صابون اخر اغسل الايدي من الطعام وهو طرف بيت الشعر يمسحون بهِ بعد انتهاء الاكل اكفهم مما علق بها من الادهان

وكنا اذا اخذنا مساء رواحلنا نجمع من الشجر اليابس او الشب الهشيم ما نتخذهُ وقوداً لطعامنا ودفأً في الليل لاجسامنا فليس — كما قالت العرب — شيء ادفأ من شجرة ولا اظل من شجرة

(اليسرى): مكثنا بضعة ايام في بيت الشيخ عودة بعد ان ذهب كما سبق للغزو ثم صعبت على رفيقي عيشة البادية الخشنة وكنت اشد منهُ جلداً وخشينا عاقبة الغزو المريبة فاستأجرنا راحلة بليرتين فرنسويتين ليوصلنا صاحبها عليها للجوف وهو من عرب النوائبة المعروفين فذهبنا وسرنا وقد ضمنا الطريق بركب صار بن عددهُ نحو عشرة ولكن سلاحنا لا يركن اليهِ. وقد مررنا بقليب بجانبهِ نخلة واحدة يقال لهُ اليسرى بكسر الميم وفتح السين وذكر ياقوت اليسر ونص على انهُ موضع شاهي واليسرى كذلك اقرب للشاهد منهُ

الى نجد . وقد لقينا في سفرنا هذا كثيراً من الارانب البرية و يلقيها البدو بغزلان الحماد اي البادية المرتفعة فيبتا يكون البدوي راجلاً لا يشعر الاَّ وارنب لشب بغتة من جانبه فان تمكن منها حذفها بعصاهُ والاَّ ادركتها الكلاب اذا كانت سلوقية ولا يعلم بالتحقيق الزمن الذي استعمل فيهِ الانسان الاول العصا للأذى فتي الامثال العربية القديمة : « تحذفهُ بالقول كما تحذف الارنب بالعصا »

(الجراوي) وما زلنا نضرب في البيد غوراً ونجداً حتى جزنا بموضع يقال لهُ النبك فذكرني نبك قرون في الشام وكنا آنئذٍ نواصل السرى تحت جنح الظلام وفي ثاني يوم اوردنا رواحنا قليب الجراوي بعد ان لقينا من لفحات السموم في الفلاة ما هو اعمري احر من دمع المقلا . فابتهجنا لمرءاه لما لوجدنا الماء لقلة المتح كما يعلمهُ البدو متغير اللون والطعم والرائحة وفيهِ مع ذلك خلق من الدود كثير فهرول صاحبي ليتقع غلتهُ من علبة الماء فصار يجرعهُ ولا يكاد يسيغهُ حائراً للبدو كيف يكرعونهُ وهم يقولون : « ترى البدو اباعر باباعر » ! اما انا والحاجة تفتح باب المعرفة كما ورد في الامثال العربية القديمة فقد اخرجت منديلي وملأتهُ رملاً نقياً وصفيت الماء برشحهِ من الرمل في العلبة فتضاحك البدو لما صنعتُ تضاحكاً مازجهُ حسرةٌ على شقائنا !

والجراوي هذا على بعد نحو مئة كيلو متر من دومة الجندل ومن الغريب ان ماء هذا القليب الآسن الوخيم كان معجباً مقلياً من القديم واليك قول ياقوت : « الجراوي يروي بضم الجيم وفتحها والضم اكثر وهي مياه في بلاد القين بن جسر وقيل هي قلب على طريق حاج الى الشام وقيل مياه لطيء بالجبلين قال بعض الاعراب :

الاَّ لا ترى ماء الجراوي شافياً صداي ولو روَّى غليل الركائب
فيا لهف نفسي كلما التحت لوحةً على شربة من ماء احواض ناضب

ونرى هنا ان معجم البلدان لم يعين لنا موضع هذا الماء فمن المحتمل وحدة الاسم وثلاثية المسمى والقول الثاني يطابق الجراوي الذي وردتهُ لانهُ على طريق حاج الى الشام

للبحث صلة

عز الدين آل عز الدين